البواعث غير المباشرة للبديهة والإرتجال في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري

Indirect, intuitive motives and improvisation in Iraqi poetry

in the seventh century AH

الباحثة

يسرى هادي طلال محمد

Yusra Hadi Talal Muhammad

yusra1986ha99@gmail.com

07805306548

أ. د. أحمد علي إبراهيم الفلاحي

جامعة الفلوجة - كلية العلوم الإسلامية

A. Dr. Ahmed Ali Ibrahim Al-Falahi

University of Fallujah - College of Islamic Sciences

ملخص البحث

يتناول هذا البحث البواعث غير المباشرة البديهة والارتجال في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري ، بوصفه واحدة من أبرز الموضوعات التي اشتهرت في العصر العباسي . وتسعى الدراسة إلى بيان أهمية هذه البواعث من خلال ابراز اهم البواعث وهي الموهبة والالهام والثقافة التي مثلت عوامل مهمة من تجارب الشاعر العاطفية التي تدفع الشعراء الى قول شعر البديهة والارتجال , واتبعت الدراسة منهجاً تحليلياً وصفياً يقوم على درجات الوصف والشرح والنقد ثم طبقت على نماذج نصية تابعت فيها مسار هذه الظواهر وأثرها على الشعر في العصر العباسي في القرن السابع الهجري . ومن ابرز ما توصلت اليه الدراسة : حضور البديهة والارتجال في مواطن متعددة من دواوين الشعراء , معبرة عن رؤية تتسم بشعور الشاعر وبديهته التي تحضره عند قول الشعر .

الكلمات الافتتاحية : البديهة , القرن , الشعر العراقي.

Research Summary

This research deals with the indirect motives of intuition and improvisation in Iraqi poetry in the seventh century AH, as it is one of the most prominent topics that became famous in the Abbasid era. The study seeks to explain the importance of these motives by highlighting the most important ones, which are talent, inspiration, and culture, which represented important factors in the poet's emotional experiences that push poets to recite poetry of intuition and improvisation. The study followed a descriptive analytical approach based on degrees of description, explanation, and criticism, and was then applied to textual models in which it followed the path of these motives and their impact on poetry in the Abbasid era in the seventh century AH. Among the most prominent findings of the study: the presence of intuition and improvisation in many areas of poets' collections, expressing a vision characterized by the poet's feeling and intuition that is present when reciting poetry.

Opening words: intuition, century, Iraqi poetry.

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين , أما بعد :

مما لاشك فيه أن الشعر يعد منبعًا ثريًا لا ينضب من الدراسات التي خاض في غمارها الدارسون والباحثون لأن هذه الدراسات تظهر الثراء المعرفي والفكري لهذا الجانب من الأدب فقد شكلت لي حافزًا ودافعًا قويًا في دراسة الأدب في القرن العباسي

لذلك جاء موضوعي بعنوان (بواعث غير مباشرة في البديهة والارتجال في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري) ويعود السبب في اختياري للشعر البديهة والارتجال في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري خصوصاً هو الغور في أعماق النصوص الشعرية في هذا القرن وإبراز شعراءهم وشعرهم وتأمل فنهم من أجل الكشف عن المظاهر الجمالية , والبناء الشعري الفخم.

وقد جاءت هذه الدراسة في مقدمة وتمهيد ومطلبين وخاتمة .

أما المقدمة فقد بينت فيها أهمية الموضوع , وسبب اختياري له .

ثم جاء التمهيد ممثلاً بواعث الشعر الغير المباشرة .

فالمطلب الأول : الموهبة والإلهام

والمطلب الثاني : الثقافة .

ثم خاتمة عرضت فيها أبرز النتائج , ثم قائمة بأهم المصادر والمراجع .

التمهيد

للشعر القديم أثرٌ بارز في فطرة الإنسان العربي وجميع مجالات حياته، فالعرب قبل بزوغ فجر الإسلام بغالبيتهم أمَّةٌ أمِّية لا يقرأون ولا يكتبون إلا القليل منهم، فكان يقول الشعر كبيرهم وصغيرهم ورجالهم ونساؤهم، فجعلوه ديوان حياتهم الذي سجَّلوا فيه شؤونهم جميعًا، قال ابن قتيبة الدينوري(ت ٢٧٦هـ): «وللعرب الشّعر الذي أقامه الله تعالى لها مقام الكتاب لغيرها وجعله لعلومها مستودعًا، ولآدابها حافظًا، ولأنسابها مقيّدًا، ولأخبارها ديوانًا، لا يرثُّ على الدّهر، ولا يبيد على مرّ الزّمان، وحرسه بالوزن، والقوافي، وحسن النّظم، وجودة التخيير من التدليس والتّغيير»(١).

وقال أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) : «وكذلك لا نعرف أنساب العرب وتواريخها وأيّامها ووقائعها إلّا من جملة أشعارها فالشعر ديوان العرب، وخزانة حكمتها، ومستنبط آدابها، ومستودع علومها؛ فإذا كان ذلك كذلك فحاجة الكاتب والخطيب وكلّ متأدّب بلغة العرب أو ناظر فى علومها إليه ماسّة وفاقته إلى روايته شديدة»(٢).

والشعر كلامٌ موزونٌ مقفًى، مقيَّد في صفة اللفظ، والعرب قد قالوا الشعر وأمرُّوه على ألسنتهم بالمعنى واللفظ الكامل والبلاغة، فكان زاخرًا بالموسيقى والأوزان والقوافي، قال ابـن رشيـق القيرواني: «كان الكلام كلُّه منثورًا، فأحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها، وطيب أعراقها، وذكر أيَّامها الصالحة، وأوطانها النازحة وفرسانها الأنجاد، وسمائحها الأجواد، لتهتزَّ نفوسُها إلى الكرم، وتدلَّ أبنائها على حُسن الشيم، فتوهَّموا أعاريضها، فعملوها موازين للكلام، فلما تم الوزن لهم سموهُ شعرًا، لأنَّهم قد شعروا به وفطنو له»(٣).

وتتعدَّد بواعث الشعر في نفس الشاعر، فمنها بواعث اجتماعية تتعلَّق باحتفاء المجتمع القبلي بالشاعر المُجيد، قال ابن رشيق القيرواني: «كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنَّأتها، وصنعت الأطعمة، واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال

(١) تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٨م، ص٢٠.

(٢) كتاب الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ، ص١٣٨.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م، ١٩/١، وينظر: تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (ت١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي بيروت، ط٤، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، ١٦/٣.

والولدان؛ لأنَّه حماية لأعراضهم، وذبٌّ عن أحسابهم، وتخليدٌ لمآثرهم، وإشادةٌ بذكرهم. وكانوا لا يهنّئون إلَّا بغلامٍ يولد، أو شاعرٍ ينبغ فيهم، أو فرسٍ تُنتج»[١]، فالشاعر هو لسان حال القبيلة في السرَّاء والضرَّاء، وهو المذيع بأمجاده ومآثرها، والمدافع عنها في منابر الفخر بالقول بين القبائل.

ومن بواعث الشعر ما يتعلَّق بقدرة الشاعر النفسية والعقلية على قول الشعر فالشعر ينبع من الروح والوجدان، ويخاطب الأحاسيس والعواطف، وبه يتميَّز الشاعر عن غيرهُ من سائر الناس، وانهم يرون أنَّ هذه المَلكة فوق الطبيعية وترتبط بعالم الأرواح، فرأى أهل الجاهلية أن هناك شياطين تلازم الشعراء وتلهمهم الأشعار البديعة العجيبة، «وَكَانَت الشُّعَرَاء تزْعم أَن الشَّيَاطِين تلقى على أفواهها الشّعْر وتلقنها إِيَّاه وتعينها عَلَيْهِ وتدعي أَن لكل فَحل مِنْهُم شَيْطَانا يَقُول الشّعْر على لِسَانه فَمن كَانَ شَيْطَانه أَمْرَد كَانَ شعره أَجود، وَبلغ من تحقيقهم وتصديقهم بِهَذَا الشَّأْن أَن ذكرُوا لَهُم أَسمَاء فَقَالُوا: إِنَّ اسْم شَيْطَان الأعشى: مِسحَل، وَاسم شَيْطَان الفرزدق: عَمْرو، وَاسم شَيْطَان بشَّار: شنقناق»[٢].

لكن مع ظهور الإسلام ونزول القرآن الكريم المعجز بحروفه وآياته والبديع في ألفاظه ومعانيه، وتأثيرهُ العجيب في النفس البشرية أطلقوا على الرسول ﷺ تسمية: الشاعر؛ لأنَّه بزعمهم جاء بهذا الكلام الذي أبدع فيه حتى جاوز بدائع شعراء العرب السابقين ، وذكر ذلك في قوله تعالى: {بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ} [٣] وقال تعالى عنهم: {أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ}[٤] وقد روي عن النبيّ ﷺ قوله: «إِنَّ من الشِّعر لَحِكمَة»[٥].

وذكر بعض الشعراء من البواعث النفسية التي تؤثّر في نفس الشاعر وتدفعهُ لقول الشعر هي: الرغبة والرهبة، فقد روي أنَّ الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قال «لأرطاة بن سهيّة: هل تقول الآن شعرا؟ فقال: كيف أقول وأنا ما أشرب ولا أطرب ولا أغضب، وإنَّما يكون الشعر بواحدة من هذه»[٦]، وروي عن الشاعر كُثير عزَّة (ت١٠٥هـ) أنَّه قد سُئِل: «مالك لا تَقُولُ الشعر، أجبلتَ؟ فقَالَ: والله ما كَانَ ذَلِكَ، ولكن فقدتُ الشباب فما أطرب، ورُزِئتُ عَزَّةَ فما أَنْسَبْ، ومات ابن ليلى فما أرغب، يعنى: عَبْد العزيز بْن

(١) العمدة : ٦٥/١.

(٢) م . ن : ٦٥/١

(٣) سورة الأنبياء : آية (٥)

(٤) سورة الطور :آية (٣٠)

(٥) السنن الصغير للبيهقي : أحمد بن الحسن الخُسْرَوْجِردي ، أبو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق : عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية ، باكستان ، ط١ ، ١٤١٠هـ -١٩٨٩م ، ١٨٢/٤، باب من تجوز شهادته ومن لاتجوز من الأحرار ، رقم الحديث (٣٣٦٩).

(٦) الشعر والشعراء : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدِّينوري (ت ٢٧٦هـ) ، دار الحديث القاهرة ، ط٢ ، ١٤٢٣هـ ، ٨٠/١ .

مروان»[١]، فأنَّ للطرب والرهبة والرغبة في نفسية الشاعر أثرًا هو من أهمِّ الدوافع التي تثير الانفعال عنده وتدفع الشاعر الى قول الشعر، فهي ممَّا ما يثير نفس الشاعر، ويؤثِّر في عاطفتهِ وإحساسهِ وإنفعالهِ، فهي من عوامل شعر البديهة والإرتجال.

وقد يقول الشاعر الشعر بدوافع خارجية تؤثر فيه، عن طريق التأثُّر بالحياة السياسية والأجتماعية والأدبية في عصره، فالشاعر هو فردٌ فاعل في حياة عصره كافَّة تفاصيلها، وهو يترجم ما يحيط من أفراح وأحزان ومحاسن ومساوئ و شؤون الحياة جميعها في أشعاره التي يصوغها على وفق ثقافة عصره التي يعكسها هو في شعره و"إنَّه مرآة الحقائق العصرية؛ لأنَّ الشاعر لا قِبلَ له بالخلاص من عصره والفكاك من زمنه، ولا قدرة له على النظر إلى أبعد ممَّا وراء ذلك بكثير، فحكمته حكمة عصره وروحه روح عصره»[٢].

وتبعًا لهذه العوامل الباعثة لقول الشعر عند الشعراء فإنَّ منهم من يقوله بطريقة آنية بديهية مباشرة، فيرتجل الأبيات أو القصيدة، وهو ما يعرف بـ (الشاعر المطبوع) فهو لا يتكلَّف في كتابة قصائده، ويقابله (الشاعر المصنوع) وهو الذي يطيل النظر والاجتهاد في نصِّه، ويعمل عليه طويلًا قبل أن يخرجه للسامعين، ومن هنا جاءت تسميتهم بـ (عبيد الشعر)، فهم يبذلون جهدًا ويستغرقون وقتًا في قول الشعر، والعرب يفضِّلون ما كان من الشعر ارتجالًا ويرون فيه قمَّة الفحولة الشعرية[٣].

وهذه البواعث في شعر البديهة والارتجال ستكون لنا منهجًا وطريقًا تسير فيه لتحديدها عند الشعراء العراقين في القرن السابع الهجري.

(١) الأمالي= شذور الأمالي= النوادر: أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م ٣٠/١.

(٢) فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه: محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، السعودية، ط٥ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، ص٢٣٢.

(٣) البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ-١٩٨٨م، ١٠/٢-١٢.

البواعث غير المباشرة

لا يتأتَّى الإبداع الفنِّي لدى الشاعر من فراغ، ولاسيما التجارب الإنسانية الارتجالية البديهية التي نبعت من صميم وجدان الشاعر، والتي تظافرت الأسباب والعوامل لإخراجها من مكمنها لدى الشاعر المبدع، فتكون تلك الأسباب والعوامل مرتبطةً بأحاسيس وانفعالات الشاعر فتستجيشها مستنطقة التجربة الواقعية التي عاشها الشاعر وانفعالاته ، فتأتي لتعبِّر عن روحه ووجدانه ،لأنها صدرت عن تجارب حقيقية واقعية.

هذه التجارب الإبداعية والخلق الفنِّي كان لا بدَّ لها من أسباب وعوامل مثيرة وباعث لها، فالمقصود بهذه البواعث هي العوامل التي تدفع الشاعر إلى إبداع الشعر المعبِّر عن حالته النفسية والوجدانية في أيِّ وقت وحين، وعلى أيَّة حالٍ كان.

وسأتناول هنا الأسباب والبواعث التي ترتبط بتجربة الشاعر الشعرية بصورة تكوينية غير مباشرة في الشعر العراقي في القرن السابع الهجري، وأهم هذه البواعث:

المطلب الأول: الموهبة والإلهام

الموهبة لغةً: من: وهبَ الشيء هبةً: إذا أعطاه لغيره بلا مقابل، والشيءُ المُعطى: موهوبٌ، وهبةٌ، والموهبة: عطاءٌ ومنحةٌ لقدرة خاصَّة[١].

وفي الاصطلاح: قدرةٌ متميِّزةٌ وذاتية, ولكنَّها تتميَّز بالخصوصية, وتتبلور وتتطور بالتدريب وزيادة المعرفة[٢].

هذه الموهبة التي يُطبع عليها الشاعر هي الشرط الأول في تبوُّئه رتبة الشعر الحقيقي، وتزداد بالتدريب وسعة الاطلاع وطول المراس، قال عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) : «إن الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء، ثم تكون الدربة مادة له، وقوة لكل واحد من أسبابه، فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرَّز، وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان»[٣].

(١) ينظر: لسان العرب (مادة وهب) ٨٠٣/١ ، المغرب في ترتيب المعرب : أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد المطرزي (ت٦١٠هـ) ، تحقيق : محمود فاخوري ، عبد الحميد مختار ، مكتبة أسامة بن زيد ، حلب ، ط١، ١٩٧٩م ، ٢/ ٣٧٣.

(٢) ينظر: المنجد في اللغة: لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١٩، د. ت ص٣٠٦.

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو

والموهبة فطرةٌ من الله تعالى يمنحها للشاعر، ويزيد هذه الموهبة بالإلهام فيكون بإستطاعته أن ينسِّق حروفه ومخارج الكلام والصفات بنسقٍ موسيقيٍّ موزونٍ مقفًّى يختزل فيه المعاني العظيمة بألفاظ قليلة، وتكون تلك الألفظ معبِّرة عن المشاعر الإنسانية بدرجة كبيرة، "وإنَّما سمي الشاعر شاعراً؛ لأنَّه يشعر بما لا يشعر به غيره"[١]، أي: بإستطاعته الأتيان بكلامٍ منظومٍ لا يستطيع غيره الأتيان به، فمصدر الشاعر هو الإلهام فهو من الله عزَّ وجل، فهو مطبوع في الشاعر مُنذُ بداية خلقه، فالإبداع الشعري يكون بالفطرة (الطبع)، فالمطبوع: هو الأصل الثابت الذي وضع في طبعه، وهو ماتعوَّد عليه الشاعر من موهبته وإلهامهُ في إيحاء شعره، وهو غير الذي يقول الشعر بالتصنُّع والتعلُّم، ويعيد كتابة شعره وترتيب أبياته ويجتهد في صوغ المعاني، لذا فإنَّ قدرة الشاعر على قول الشعر تختلف عن قدرة المرء العادي في الموضوع أو الفكرة نفسها شرحًا نثريًا عقليًا.

ومن أشعار الشعراء العراقيين في القرن السابع الهجري، ما روي من أنّ السلطان بدر الدين صاحب الموصل (ت٦٥٧هـ)[٢]، رأى الشاعر ابن الحلاوي الموصلِّي (ت٦٥٦هـ)[٣] «في روضةٍ معشبة، وبين يديه برذونٌ له مريض يرعى فجاء إليه ووقف عندهُ وقال: مالي أرى هذا البرذون ضعيفا؟ فقام وقبَّلَ الأرض وقال: يا مولانا السلطان، حالُهُ مثلُ حالي، وما تخلفت عنه في شيء، يدي بيده في كلِّ رزق يرزقنا الله، فقال له: هل عملت في برذونك هذا شيئاً؟ قال نعم، وأنشدهُ بداهةً: (المنسرح)

أصبح برذوني المرقّع بالـ ... لمصقات في حسرةٍ يكابدها
رأى حمير الشّعير عابرةً ... عليه يوماً فظلّ ينشدها
قفا قليلاً بها عليّ فلا ... أقلَّ من نظرةٍ أزودّها[٤]

الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، ط٣، ١٩٥١م، ص١٥.

(١) العمدة : ١١٦/١. وينظر: وحي القلم: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، ٢٠٦/٣.

(٢) أبو الفضائل بدر الدين لؤلؤ الأرمني النوري الأتابكي، هو مملوك السلطان نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل، من سبي أرمينيا، تدرَّج عند السلطان حتى تولَّى هو السلطنة بعد وفاته سنة (٦٣٠هـ)، صالح هولاكو بعد فاجعة سقوط بغداد، وكان كريما يحبُّ الشعر مع ظلم وجبروت في الحكم، توفي بالموصل سنة (٦٥٧هـ). ينظر: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ), تحقيق: د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت, ط١, ٢٠٠٣م، ٨٦٤/١٤.

(٣) شرف الدين أبو العباس أحمد بن محمد الربعي، ابن الحلَّاوي الموصلِّي ولد سنة بالموصل (٦٠٣هـ)، وعرف بجمال الشعر وخفة الروح ودماثة الطبع،مدح الملك الناصر داود الأيوبي والسلطان بدر الدين لؤلؤ، توفي بالموصل= سنة (٦٥٦هـ) ينظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨ه), تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة, بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ٣١٠/٢٣.

(٤) ديوان ابن الحلاوي الموصلِّي (ت٦٥٦هـ)، تحقيق وشرح وتقديم: د. عبد الرزاق عبد الحميد حويزي، دار صادر، بيروت،

فأعجبَ السُّلْطَان بديهتُهُ، وَأمر لَهُ بخمسين دِينَارا وَخمسين مكوكاً من الشّعير، وَقَالَ لَهُ: هَذِه الدَّنَانِير لَك، وَالشعِير لبرذونك، ثمَّ أمره بملازمة مَجْلِسه كَسَائِر الندماء، وَلم يزل يترقّي عِنْده إِلَى أَن صَار لَا يصبر عَنهُ"[1].

في هذه الأبيات نرى قدرة الشاعر على ارتجال الشعر وإجادته فيه عندما سأله السلطان فأجابه مباشرةً، وهو ما رأيناه في النَّص السابق بقول الصفدي: «فأعجبَ السُّلْطَان بديهتُهُ»، فكانت قوَّة الارتجال وحضور البديهة عند الشاعر ابن الحلاوي مثار إعجاب السلطان الذي أجزل له العطاء واصطفاه ليكون من جلسائه وندمائه الدائمين في قصره في قلعة الموصل، وهذا الارتجال عند ابن الحلاوي ليس فقط في نظم الأبيات الشعرية، بل هو في تضمينها اقتباسا من الأبيات المشهورة لأعلام الشعراء العرب المتقدِّمين، فقد ضمَّنها صدر البيت المشهور لأمير الشعراء امرؤ القيس الكندي والذي يقول فيه: (الطويل)

وقوفاً بها صحبي عليَّ مطيَّهم يقولون لا تهلك أسى، وتَجَمَّلِ[2]

فجاء به منسجما في معنى ووزن أبياته اسجامًا تامًا، وهو ما يكشف مدى تمكُّن الشاعر وفطنته وحضور البديهة عنده، وهو ما أعجب السلطان فأجزَلَ له العطاء وقرَّبه منه وأدناه.

ومن الشعراء الذين عُرفوا بالذكاء والفطنة عز الدين بن أبي الحديد المدائني (ت٦٥٦هـ)، فقد روي أنَّه نظم فصيح ثعلب (ت٢٩١هـ)[3] في يوم وليلة، فقد كان شديد الذكاء مطبوعًا في شعره[4]، وكذلك أخوه موفَّق الدين ابن أبي الحديد[5]، ولمَّا ألَّف عز الدين كتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) في فنون

ط١، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م، ص٤٣.

(١) الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ), تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى, دار إحياء التراث, بيروت, ١٤٢٠ه-٢٠٠٠م، ٢٦٤/٤، وينظر: ابن الحلاوي الموصلي، حياته وشعره مع تحقيق -ما وصل إلينا منه: د. محمد قاسم مصطفى، عبد الوهاب محمد العدواني، مجلة التربية والعلم، كلية التربية، جامعة الموصل، ١٩٨٠م، ص٢٧.

(٢) ديوان امرئ القيس: امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت٥٤٥م)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ص٢٤.

(٣) أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد الشيباني البغدادي، ثعلب (٢٠٠هـ-٢٩١هـ)، أحد أئمة الكوفيين في النحو، وأحد ثلاثة قامت على كتبهمهم مدرسة الكوفة، إمام في النحو واللغة وراوية للشعر وأخبار العرب، ألَّف: الفصيح وتصانيف كثيرة، ولد وعاش ومات في بغداد. ينظر: تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم: أبو المحاسن المفضل بن محمد التنوخي المعري (ت٤٤٢هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م، ص١٨١.

(٤) عَبْد الحميد بن هِبة اللَّه بْن مُحَمَّد أَبِي الحديد، عزُّ الدين أَبُو حامد المدائني المُعتزلي، فقيه شاعر أديب، روى بالإجازة عن: عَبْد الله بن أَبِي المجد الحربي، له ديوان مشهور، من تلاميذه شرف الدين الدمياطي وغيره، له ديوان شعر و(شرح نهج البلاغة) وغيرها الكثير، توفي سنة (٦٥٦هـ). ينظر: تاريخ الإسلام الذهبي: ٧٧٩/١٤.

(٥) موفق الدين أبو المعالي قاسم بن هبة الله بن محمد بن أبي الحديد المدائني الأشعري الأصولي، أديب كاتب بليغ، له باع في الشعر والنثر، وكان الوزير ابن العلقمي يكرمه وينوه بذكره وبذكر أخيه عز الدين، فلما مات ابن العلقمي توفي موفق الدين

الكلام والأدب كتب له أخوه الموفَّق بديهةً يخبره ببقاء ذكره بهذا الكتاب الفريد، فقال[١]: (البسيط)

المثل السائر يا سيدي صنفت فيه الفلك الدائرا
لكن هذا فلك دائر تصير فيه المثل السائرا

ففي هذين البيتين اللذين ارتجلهما الشاعر للتنويه بفضل هذا الكتاب البالغ في الفائدة وحسن التأليف نرى ذكاء الشاعر حين جمع في نظمه للبيتين بين اسم الكتاب الأول (المثل السائر)، وبين اسم الكتاب الثاني الذي ألَّفه أخوه عز الدين (الفلك الدائر على المثل السائر)، وكيف استعار معنى اسم الكتاب الأوَّل للتنويه بكتاب أخيه وأنَّ الناس ستتحدَّث بكتابه كما يتحدَّثون بالمثل السائر، وهذا حسن نظمٍ وسرعة بديهة ودقَّة في توظيف الالفاظ لخدمة المعاني المنشودة في الشعر المرتجل، وهو ما لا يأتي إلا عن ذكاء وفطنة، وقوة المَلك في نظم الشعر.

وممَّا روي أيضًا في هذه الموهبة الفطرية في ارتجال الشعر ما جاء عن الشاعر محمد بن سالم القبيصي الموصلي (ت٦٤٠هـ)[٢] حينما أنشد الشعر بديهةً في صبيٍّ يدعى بـ (الماء ورد)، «فحضر عند صديق، وأنفذ خلفه، وقال: قم إلى الماء ورد فهو يستدعيك، فعمل أبو عبد الله بديهة مع الرسول هذه الأبيات»[٣]: (المديد)

أيُّها المَولى الشِّهاب ومَن ذِكره بَينَ الورى سَاري
والَّذي لولا مَكَارمه مَا حَلَت فِي الدَّهرِ أَشعاري
أَخرجَ الماورد عَنك فَما تَصطلي يا ذا العلا نَاري
واغتَنم شُكري علاكَ فَفي تَركِ شُكري غَايةَ العَار
لا يُرى المَاورد فِي بَلدٍ قَطُّ إلّا عِند عَطَّار

بعده بأربع ليال سنة (٦٥٦هـ). ينظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله -محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ), تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط, مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، ٤٩٤/١٦.

(١) فوات الوفيات: محمد بن شاكر صلاح الدين الكتبي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: إحسان عباس ـ دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٤م، ٢٥٩/٢.

(٢) محمد بن سالم بن مطر القبيصي الموصلي، من أهل قبيصة، قريّة شرقي الموصل، فقيه شاعر، نزل حلب وسكن بعض مدارسها، ومدح الأمراء والملوك بشعره، توفي بعد سنة (٦٤٠هـ). ينظر: قلائد الجمان في شعراء هذا الزمان: أبو البركات كمال الدين المبارك بن الشعَّار الموصلّي (ت٦٥٤هـ)، تحقيق: كامل سلمان الجبوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ٢٣٩/٦-٢٤٠.

(٣) م . ن : ٢٤٤/٦.

هنا نرى الشاعر قد قال هذه الأبيات بديهة كما صرح بذلك راوي الحادثة والتي مدح فيها هذا الغلام المدعو بـ (الماء ورد) وهو اسمٌ مركَّبٌ من لفظتي (ماء) و (ورد)، وقد عمل الشاعر القبيصي في أبياته على توظيف هذا الاسم الجميل وربطه بمهنة العطارين الذين يبيعون ماء الورد في دكاكينهم مع سائر العطور المعروفة آنذاك، وهو يوظِّف هذا الوصف الدقيق للاسم الجميل في غرض مديح صاحبه (الشهاب) الذي له عليه أفضال ومِنن، وهذا إن دلَّ على شيءٍ فإنَّما يدلُّ على أنَّ هذا الشاعر ذو ذكاءٍ وثقافةٍ وملكةٍ أدبيةٍ لغويةٍ جاد بها خاطره فعبَّر عنها في هذه الأبيات جميلة الالفاظ بديعة المعاني بأسلوب الارتجال الذي يتمتَّع به الشعراء المُجيدون المطبوعون.

ب- المطلب الثاني: الثقافة

تطوَّر الشعر العراقي في العصر العباسي وفي هذا القرن على الرغم من تراجع مجالس الأدب وضعت الشعر في مواطن كثيرة لكنه ظل ينبض عند بعض الشعراء الذين يمتلكون الموهبة والثقافة والاطلاع على شعر الشعراء في القرون السابقة فصقلوا موهبتهم بالثقافة فضلاً عن مؤثرات العصر في هذا القرن «فأنه يحتفظ بخير ما في القديم من معانٍ وصور ، وهو يشفع ذلك بدقائق الفكر العباسي الجديد واستنباطاته الخفية ومحاسن خياله الحديث وتصويراته ، وبذلك تطوَّر الشعر في العصر العباسي تطورًا مثمرًا، تتوثق فيه العلل والأسباب بين القديم والجديد توثقًا نحسُّ فيه ضربًا من المحافظة المنتجة الحية، كما نحس فيه ضربًا من التحول مع العصر وكلِّ ما يداخله من ألوان الحضارة والترف وآثار الثقافة والفكر العميق»[1].

فبدأ الشاعر في هذا العصر يخضع للتقويم من قبل النقَّاد والأدباء ممَّا فرض عليه الإلمام بعلوم الشريعة الإسلامية من القران الكريم والحديث النبوي الشريف وشيئًا من الفقه وسائر العلوم الأخرى، وعلوم اللغة العربية من النحو والصرف والعروض ومعرفة أشعار العرب القدماء وأمثالهم وأيامهم، وكذلك الأحاطة بأحوال المجتمع المتنوّع الأجناس والثقافات[1]، فالشاعر يحاول من خلال جمع ذلك كلَّه أن يجعل لنفسه وذاته مقوِّمات يثري به أشعاره ويجاري بها أهل الأدب والثقافة في مضمار الشعر والأدب، «حتى تنشا في النفس مَلكةٌ ينسج على منوالها، ويتخيَّر المحفوظ من الحرِّ النقيِّ الكثير الأساليب»[2]؛ ليطَّور مخيلته بما تفيض به من خزين ثقافي عند نظمهِ للشعر وإرتجاله.

(١) الفن ومذاهبه في الشعر العربي: أحمد شوقي عبد السلام ضيف، دار المعارف، مصر ط١٢، د. ت.، ص٦.

(٢) مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٨ه)، تحقيق: دار القلم، بيروت، ط٤، ١٩٨١م، ص٥٧٤.

من خلال الإطلاع على الشعر في هذا القرن تبيَّن لي أنَّ حضور الصورة الشعرية بأنواعها المتعددة، والتي استعملها الشعراء لنظم شعرهم وإبراز المعاني التي تهدف إلى تصوير كلّ شيءٍ حولهم من محسوسات وغير محسوسات، وما دار من أحداث وشخوص احتوت صورًا ومعانٍ أثارت أحاسيسهم ومشاعرهم وأثَّرت في نفوسهم ووجدانهم، فكان ما يمتلكون من ثقافة غزيرةٍ مرهفةٍ وواسعة قد شكَّل دافعًا مهمًّا أخذ بأيديهم للإفصاح عما يجول في خاطرهم ووجدانهم في تجربة شعورية عميقة وراقية، فخلقت أشعارهم صورًا نابضةً ومتكاملةً للواقع الذي سجلوه في هذا الشعر المتطور بأدقِّ تفاصيله التقليدية وغير التقليدية، من حيث مقدرتهم عن التعبير عن أفكارهم وأحاسيسهم بشكل فعال ومؤثِّر، فضلاً عن الموهبة التي تُعتبر هي الأساس المهم لدى الشاعر يصوغ بها ما عنده من خزين أدبي وثروة ثقافية.

كان للثقافة القرآنية دورٌ كبيرٌ وبارزٌ في توجيه الشاعر عند الارتجال والشواهد عديدة ومنها، ما روي عن ابن العمرانيّ الأزديّ (ت٦٢٤هـ)[1] عندما رثى خاله الصاحب معين الدولة، "وقال في المرحوم وهو في الطريق في الحجاز بديهةً في تلك السنة: **(مجزوء الكامل)**

حُـــثّ الـــمَـــطـيّ بِـــلا فُـــتُـــور ... بِـــالـصّـاحِـــب الـــمولى الـكَـبـيـر
وَبِـــذكـــرِه فَـــتَـــغَـــنَّ لِـــي ... تَـــخـــدِي وَتَـــعَـــنـــق فِـــي الـمَـسـيـر
يَـــا صـــاحـــا فَـــاقَ الـــوَرى ... بِالفَـضـــل والـجُـــودِ الـغَـزيـــر
يَـــا مـــن سَـحـــابِ أَكـــفّـه ... يُـغـنـــي عَـــن الـعـامِ الـمـطـيـر
وَيـــراعـــه تَـــحـــمـــى بـــه ... قِـمـــم الـصَـيـــاصـي والـثّـغـــور
فَـــعَـــطـاؤه قَـــبـــل الـــسّـؤا ... ل وعَـــذره بَـــعـــد.....[2]
فَـــاســـلـم وَدم لا سَـــاورتـ ... ك يَـــد الـحـوادث فـي الـدّهـــور
لازال جـــدُّك سَـامـيًـا ... يَـلـعـو عَـلـى مَـتـن الأثـيـر
مَـــا غَـــرّدت قَـمَـريّـةٌ ... وشـــدت عـلـى غـصـن نـضـيـر»[3]

ففي هذه الأبيات الشعرية إستمد الشاعر من ألفاظ القران الكريم ذات المعاني المنشودة فيها، وهي (المولى، الصياصي، جَدُّك)، وهي ألفاظ قرآنية ذات دلالة خاصَّة بعد الإسلام وردت في كتاب الله العزيز،

(١) أبو المظفر عبد الباقي بن أبي الفتح نصر بن هبة الله، أصله من قرية من قرى الموصل العمرانيّة، من أبناء الرؤساء الأجلاء، ولد سنة (٥٧٨هـ) في الموصل، وصحب الشيخ عبد العزيز بن أحمد بن هاجر الموصلي المقري، وختم عليه للسبعة والعشرة، كما سمع الحديث شعره رقيق مدح به الأعيان، ولم يقصد به أجراً، حج بيت الله الحرام، من أهل الديانة والصلاح حسن الطباع والأخلاق. ينظر: قلائد الجمان: ١٤٣/٣-١٤٤.

(٢) هكذا هو عجز البيت في المصدر

(٣) قلائد الجمان: ١٤٨/٣_١٤٩

في قوله تعالى: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا}[١]، وقوله سبحانه: {وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا}[٢] وقوله جلَّ علاه: {وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ}[٣].

هذه التوظيفات للألفاظ القرآنية ذات الدلالات الخاصَّة تدلُّ على ثقافة الشاعر الواسعة التي أفادت من القرآن الكريم ومن علوم العربية وآدابها، والتي أثمرت توظيف هكذا كلمات بتناسق شعري جذاب، وإجادة الربط المعنوي الذي يخلب لبَّ المتلقي ويحدث الأثر المطلوب في عقله ووجدانه عند تلقيه هذه الأبيات المسبوكة بألفاظها المتناسقة، والمنظومة بمعانيها الأنيقة المعبّرة عن خلجات وجدان الشاعر والذي أثمر تجربة شعورية وجدانية عبَّرت عن فقد هذا الرجل الجليل الحبيب والذي كانت له مكانته المرموقة في مجتمعه وعند شاعرنا الذي يرتبط معه بصلة الرحم والقربى، وقد تضمَّن هذا الرثاء له تعدادا لمحاسنه ومناقبه الدينية والدنيوية التي عُرف بها بين أهل زمانه، وكيف أنَّ الشاعر الموصلّي (أبو الفتح بن العمراني) قد أحسن إيراد وتوظيف هذه الألفاظ القرآنية البليغة الجليلة في بيان تلكم الصفات والمحامد التي امتاز بها الفقيد.

وروي عن أَبُي مُحَمَّد الْبَنْدَنِيجِيّ الْبَغْدَادِيّ (ت٦٠٠هـ)[٤] معلم كتاب قَرَأَ شَيْئا من الْأَدَب على أبي مُحَمَّد بن الخشاب النَّحْوِيّ وَأورد لَهُ محب الدّين بن النجار قَالَ: قَالَ ذَلِك ارتجالاً وَهُوَ متمسك بِأَسْتَارِ الْكَعْبَة: **(الخفيف)**

يَا إِلهِي يَا غَافِرَ الذَّنب يَا مسـ ... ـدي العطايا يَا دَائِم الْإِحْسَان
عَبدك المسرف المفرط يَدْعُوك ... بِذلٍّ خَوفًا من النيرَان
وَهُوَ مُستمسكٌ ببيتك يَرْجُو ... رَحْمَة مِنْك مَعَ بُلُوغ الْأَمَانِي
فَاغْفِر الْآن ذَنبه واعف عَنهُ ... وَتَصدَق عَلَيْهِ بالرضوان"[٥]

---

(١) سورة الجن: آية (٣)

(٢) سورة الأحزاب: آية (٢٦)

(٣) سورة الأنفال: آية (٤)

(٤) الحسن بن يحيى بن مُحَمَّد بن تَمِيم بن الْحُسَيْن أَبُو مُحَمَّد الْبَنْدَنِيجِيّ المؤدّب الْبَغْدَادِي أديب ومعلّم كتَّاب، قَرَأَ الْأَدَب على أبي مُحَمَّد بن الخشاب النَّحْوِيّ البغدادي وَغَيره، وله أناشيد مروية، توفّي في بغداد سنة (٦٠٠هـ)= ينظر: التكملة لوفيات النقلة: زكي الدين أبو محمد عبد العظيم بن ـعبد القوي المنذري (ت٦٥٦هـ)، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ-١٩٨١م، ٣٣/٢.

(٥) الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ), تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى, دار إحياء التراث, بيروت, ط٢، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، ١٨٨/١٢-١٨٩.

نرى في هذه الأبيات، تضمين الشاعر للألفاظ والمعاني القرآنية الكريمة التي يفصح بها عن تجربته الشعورية الصادقة وهو متعلّق بأستار بيت الله الحرام، فقد أتى بالكلمات في صدر البيت الأوّل ببعض ما جاء في قوله تعالى: {غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ}[١]، وكذلك في صدر البيت الأخير والذي ضمَّنه من القران الكريم من قوله جلَّ جلاله: {الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}[٢]، وهذا يدلُّ دلالة جليَّةً على مدى تأثُّر الشاعر بالقرآن الكريم في ثقافته الشعرية، والتي أفادته في توظيف الألفاظ والتراكيب القرآنية البليغة الصريحة المعبّرة بصدقٍ وعفويةٍ بديهيةٍ عن الحالة الشعورية التي يعيشها الشاعر في ذلك الموقف المهيب متوسّلًا ومستجيرًا بربِّ العزّةِ والجلال ومستغيثًا به وبمحامد صفاته سبحانه الدالَّة على واسع رحمته.

ومن روافد القافة عند شعراء الارتجال والبديهة في هذا القرن العلوم العقلية والنقلية ومصطلحاتها التي زيَّنوا بها أشعارهم ووظفوها في خدمة المعاني المنشودة في أشعارهم، ومن ذلك ما روي عن الشاعر محمد بن القاسم الحريري (٦٢٨هـ)[٣] والذي أنشد «لنفسه بسنجار في ربيع الأول سنة ثمان وعشرين وستمائه، وأنشدها للسلطان الملك الأشرف شاه أرمن -رحمه الله تعالى- ونظم ذلك بديهة: (الكامل)

يـا أيُّـهـا الـمـلـك الَّـذي بـعـلـومـهِ أصـبـحـت بـيـن يـديـه كـالـمـتـعـلِّـم
ابـدعـتَ فِـيـمـا قُـلـت حـتَّى لـم يَـقـل أحـدٌ بـأنَّ الـفـضـل لـلـمـتـقـدِّم[٤]

فقد أفاد الشاعر في هذه الأبيات من هذه الكلمات (العلوم، المتعلِّم، الإبداع، المتقدِّم) والتي هي من مصطلحات أهل العلوم في زمانه، والتي هي أيضًا تنبئ عن اطِّلاعه عليها عن كثب وخبرته بها وممارسته لها، خصوصًا وأنَّه قد مارس الطبَّ فضلًا عن علوم الشرع والآداب وتقريظه للشعر الذي قاله في هذا الموضع بداهة وارتحالًا، وقد أحسن في توظيفها في هذين البيتين شديدا السهولة والوضوح البعيدين عن التكلُّف والوعورة في ألفاظهما، وأيضًا فيهما وضوح المعنى المنشود والهدف المقصود والبعد عن الإبهام والغموض في معانيهما، فكلُّ هذه الكلمات تجعل المتلقي يستشعر معاني السموِّ والرفعة في

(١) سورة غافر: آية (٣).

(٢) سورة ال عمران :آية (١٦).

(٣) أبوعبد الله محمَّد بن القاسم بن هبة الله بن القاسم الحريريّ، الطبيب الحكيم من أهل دينسير، كان والده ممن اشتهر في علم الطب والمداواة، قرأ محمد على المهذب أبي الحسن علي بن أحمد بن هبل البغدادي الخلاطيّ بالموصل كتابه (المختار)، ورحل إلى بغداد، فظهر بها القبول عند الناس وعالج بها خلقًا كثيرًا بالأدوية، ثم رحل منها إلى بلاد العجم، وصنّف كتابًا سمّاه (الروضة) وكتاب (البلغة)، وقرض الشعر، وله خاطر سريع في ارتجاله، توفي سنة ٦٢٨هـ، ينظر: قلائد الجمان: ٢٣٦/٥.

(٤) م. ن: ٥/ ٢٣.

الممدوح، وتمتعه بالعلم الغزير والثقافة الراقية حتى يصير العالم عنده كأنَّه متعلِّمٌ، وهذا ما قصده الشاعر من الإتيان بهذه الالفاظ العلمية السهلة الواضحة في مدحه الملك، لتكون عالية التعبير قويَّة الجذب لحواس المتلقِّي وفهمه لها.

ومن جهةٍ أخرى نجد بعض الشعراء يتعمقون في الأفكار ويسبرون أغوارها لكي يبرزون بداعتها ورونقها اللذان يعملان على جذب المتلقِّي والتأثير فيه، فنفوس الناس تهوى الغريب الفريد، كما قال الجاحظ: «لأنَّ الشيء من غير معدنه أغرب، وكلَّما كان أغرب كان أبعد في الوهم، وكلَّما كان أبعد في الوهم كان أطرف، وكلَّما كان أطرف كان أعجب، وكلَّما كان أعجب كان أبدع... وتعجُّبهم به أكثر، والناس موكلون بتعظيم الغريب، واستطراف البعيد، وليس لهم في الموجود الراهن، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى، مثل الذي زهَّد الجيران في عالمهم، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم»[١].

لذلك نرى أنَّ من الشعراء من أحسنوا في توظيف هذه الأفكار والأساليب الغريبة النادرة في أشعارهم، وازدادوا في التعمُّق لأجل إضفاء عناصر جمالية على أشعارهم، وزيادة قوة التأثير والجاذبية في أبياتهم الشعرية التي تقوم على عناصر المفاجأة التي لم يكن القارئ يتصور إمكانها[٢].

ومن ذلك ما روي عن الشاعر علي بن محمود أبي الحسن الكوفي (ت٦٣٩هـ)[٣]، لمَّا وصل إلى الملك الرحيم بدر الدين عضد الإسلام أبي الفضائل غرس أمير المؤمنين- خلَّد الله ملكه- خلعةٌ صفراء من السلطان الملك الأشرف وذكر إنَّها كانت قبل ذلك على السلطان الملك الكامل ناصر الدين أبي المعالي محمد، وذلك عقيب فتح دمياط[٤]، واتَّفق بالقرب من ذلك وفاة الملك الصالح أبي الفتح محمود بن محمد-صاحب آمد- فقال بديهة: (الطويل)

أطاعك ما تَحتَ المجرَّة صاغراً ... وَدَانت لك الدُّنيا وهانت صعابها
ووافتك أثواب الجهاد غبارها ... شفاءٌ وذخرٌ في المعاد ثوابها

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٩٣/١.

(٢) ينظر: تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٤ ، ١٩٨٣م، ص٢٤١.

(٣) عليُّ بن محمدَّ بن محمود أبو الحسن الكوفيُّ المخزومي، ابن حبانة، شاعر ظريف، نبغ في الكوفة ثمَّ ارتحل إلى الشام فمدح بها الملك الأشرف موسى، عرف بدماثة الأخلاق وغزارة الشعر وطيب المعشر، وقدم إلى ماردين رسولاً، فأخذه صاحبها وحبسه، فبقي بالحبس حتَّى توفي سنة (٦٣٩هـ)، ينظر: قلائد الجمان : ٣٦٤/٣.

(٤) هي معركة تحرير مدينة (دمياط) شمال مصر من الصليبيين بقيادة الكاردينال بلاجيوس الذين كانوا قد احلُّوها سنة ٦١٧ه، وقاد المسلمين فيها الملك الكامل الأيوبي وبعد تدمير أغلب جيش الصليبيين فقد انسحبوا من دمياط يوم الأربعاء ١٩ رجب ٦١٨هـ، ودخلها المسلمون منتصرين، ففشلت الحملة الصليبية الخامسة فشلًا ذريعًا وخسارةٍ ضخمة، ينظر: تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ) تحقيق: الدكتور بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت, ط١, ٢٠٠٣م، ٤٩/٤٧.

حـيًّـا أشـرفـيًّـا كـامـلـيًّـا وفـَـت بـه ... مـودَّات صـدق لا يـخـاف انـقـضـابـهـا
كـسـت أوجـه الـحـسَّـاد صـفـرة لـونـهـا ... وأبـعـدهـم بـالـسُّـحـق عـنـك اقـتـرابـهـا
لـوى فـتـح دمـيـاط الأعـادي فـبـعـضـهـا ... قـضـى نـحـبـه والـبـعـض ذلَّـت رقـابـهـا»[1]

لقد وظَّف الشاعر صفات هذه الخلعة (البدلة) الصفراء من ثياب ملوك مصر بعد انتصارهم في معركة دمياط في مدح صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، فجعل مجيء هذه الخلعة مهداةً إليه عنوانًا لعلوِّ شأنه وبسط سلطانه، وهو يبالغ حينما يقول: (أطاعك ما تَحتَ المجرَّة صاغرًا)، فما تحت المجرَّة هو الأرض جميعها، وسلطان بدر الديني لؤلؤ كان الموصل ونواحيها فقط، وهو يستعمل الاستعارة المكنية في هذا التوظيف في قوله (ووافتك أثواب المجد) حيث شبَّه المجد بالثوب المهدى إليه من الملك الأشرف، كما إنَّه يستعير لونها الأصفر لوجوه الحسَّاد المرعوبة من هذا السلطان والمجد، وهو يذكر واقعة دمياط العظيمة التي انكسر فيها الصليبيون مفتخرًا بها في أبياته، وهنا تبرز قدرة الشاعر الفنية ومَلكته الثقافية، فقد أدخل ألفاظ ومصطلحات الجغرافيا الفلكية وألفاظ التأريخ والوقائع وألفاظ الأدب في الخصال والشمائل وغير ذلك فصاغ منه هذه الأبيات الفريدة في الثناء على ممدوحه، وهذا يعكس سعة ثقافته وعمق أفكاره التي ولَّدَت هذه القدرة تعبيريَّة متلائمة بين عناصرها المتنوِّعة من خلال بث العناصر التي توحي بمكنون وجدان الشاعر وتجربته الشعورية، وما تحتويه من عناصر الإقدام والشّجاعة والسلطان والقوّة والكرم، فهذه كلّها عناصر استطاع الشَّاعِرُ أن يسبكها الشاعر ويقوّي أبياته بمعانيها وليمتَّع السامع بها، ويلفت أنظار السلطان إليه ويحضى بها عنده.

ونرى من شعراء هذا القرن من يحاول توظيف كلماته واستعمال كلمات من أجل إضفاء روح الدعابة والأنس، كما فعل الشاعر أبو حفص الفرغانيُّ (ت٦٣٢هـ)[2] «وقال أيضًا بديهة في صديقٍ له على سبيل البسط والتأنيس، وقد دخل عليه -ويلقب بالنجم- وكانوا في بستان صفيّ الدين بن الموفق: (الطويل)

رجـمـنَـا أَكـاذيـب الـظُّـنـونِ بـِـصـادقٍ ... مِـن العِلم صـافٍ لَـمْ يَـشُـب صفوَه الرَّجم
وصـرنَـا هُـداةً مُـهـتـديـن إلـى الـهـدى ... وكـنَّـا حـيـارى بـعـدمـا طَـلـع الـنَّـجـم

(١) قلائد الجمان : ٣٦٥/٣.

(٢) عمر بن محمد بن أبو حفص الفرغاني، ولد في فرغانة (تركستان) حاليًا سنة (٥٦٢هـ) فقيهٌ حنفيٌّ صوفيٌّ عالم بالنحو والعربية، رحل الى بغداد فولاه الخليفة العباسي المستنصر بالله التدريس بالمدرسة المستنصرية لفقه الإمام أبي الحنيفة حتَّى توفي في بغداد سنة (٦٣٢هـ) ينظر: إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي (ت٦٤٦هـ), تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم, دار الفكر العربي, القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية, بيروت، ط١, ١٤٠٦هـ-١٩٨٢م، ٣٣١/٢-٣٣٢.

وأصفى صفيُّ الدِّين منَّا قرائحًا على ورَّادها النَّثر والنَّظم
وأضفى علينا أَنعما جلَّ قدرها عظامًا تولّى شكرها اللَّحم والعظم"[1]

هنا يُبرز الشاعر قدرته على تضمين أسماء الأشخاص مع توجيه معانيها ودلالاتها لأغراضٍ هو يبتغيها في جلسائه وندمائه (النجم) و(صفي الدين)، فأبرز أجمل ما في صفات ودلالات الاسمين كليهما، فجعل (النجم) كالشهاب الذي يرجم الشياطين، ويجعله الله تعالى سبيلًا إلى الهدى، وجعل (صفي الدين) سببًا لصفاء النفوس والقرائح، والتي جادت بجميل الكلام المنظوم بسبب هذا الصفاء العذب وأسجى معه الأنعم والكرائم الجليلة القدر العظيمة الشأن، فراحت جوارح أبدان المُكرَمين تلهج بالثناء والشكر لهذه الإنعامات والفضائل، وهذا كلُّه يكشف للمتأمِّل في هذه الأبيات قدرة الشاعر اللغوية والأدبية التي صاغها فيها بأجمل نظم، و وشَّاها بالمعاني الجميلة الجليلة.

(١) قلائد الجمان : ٢٢٣/٤

الخاتمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين, أما بعد :

الشعر الارتجالي البديهي هو المرتبة العليا في أشعار الشعراء المطبوعين في قولهم للشعر، والبعيدين عن الصنعة والتكلُّف، وهذه المَلكة الشعرية التي امتلكوها هي موهبة ربَّانية جليلة، صقلوها بالدِّربة والممارسة والذوق المرهف في قولهم للشعر عبر مراحل حياتهم ، وهي تشكَّل الموهبة الفطرية على نظم الشعر بلا تكلُّف، والثقافة الأدبية الواسعة التي يجمعها الشاعر في بواكير حياته الشعرية، تمثِّلان البواعث غير المباشرة للارتجال في قول الشعر بديهةً.

المصادر و المراجع

- القرآن الكريم .

١- الأمالي= شذور الأمالي= النوادر: أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم (ت٣٥٦هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، ط٢، ١٣٤٤هـ- ١٩٢٦م .

٢- البيان والتبيين: أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٧، ١٤١٨هـ-١٩٨٨م.

٣- تاريخ آداب العرب: مصطفى صادق بن عبد الرزاق الرافعي (ت١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي بيروت، ط٤، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م .

٤- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ), تحقيق: د. بشار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت, ط١, ٢٠٠٣م .

٥- تاريخ العلماء النحويين من البصريين والكوفيين وغيرهم: أبو المحاسن المفضل بن محمد التنوخي المعري (ت٤٤٢هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح محمد الحلو، دار هجر، القاهرة، ط٢، ١٤١٢هـ- ١٩٩٢م .

٦- تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٤ ١٩٨٣م .

٧- تأويل مشكل القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١،١٤٢٧هـ ٢٠٠٨م

٨- ديوان ابن الحلاوي الموصلّي (ت٦٥٦هـ)، تحقيق وشرح وتقديم: د. عبد الرزاق عبد الحميد حويزي، دار صادر، بيروت، ط١، ١٤٣٨هـ-٢٠١٧م .

٩- ديوان امرِئ القيس : امْرُؤُ القَيْس بن حجر بن الحارث الكندي (ت٥٤٥م)، اعتنى به: عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م .

١٠-السنن الصغير للبيهقي: أحمد بن الحسين الخُسْرَوْجِردي، أبو بكر البيهقي (ت٤٥٨هـ) تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، جامعة الدراسات الإسلامية، باكستان، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩م .

١١-سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ), تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت، ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م .

١٢-العمدة في محاسن الشعر وآدابه: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت٤٦٣هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط١، ١٤٠١هـ- ١٩٨١م.

١٣-فن التحرير العربي ضوابطه وأنماطه: محمد صالح الشنطي، دار الأندلس، السعودية، ط٥ ١٤٢٢هـ-٢٠٠١ م .

١٤- الفن ومذاهبه في الشعر العربي: أحمد شوقي عبد السلام ضيف، دار المعارف، مصر ط١٢، د. ت.

١٥- قلائد الجمان في شعراء هذا الزمان: أبو البركات كمال الدين المبارك بن الشعَّار الموصلِّي (ت٦٥٤هـ)، تحقيق: كامل سلمان الجبوي ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م .

١٦- كتاب الصناعتين: أبو هلال الحسن بن عبد الله العسكري (ت٣٩٥هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٧- لسان العرب: محمد بن مكرم بن على أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (ت٧١١هـ) ، الناشر: دار صادر - بيروت، ط٣ ، ١٤١٤ هـ .

١٨-المغرب في ترتيب المعرب : أبو الفتح ناصر الدين بن عبد السيد المطرزي (ت٦١٠هـ) ، تحقيق : محمود فاخوري ، عبد الحميد مختار ، مكتبة أسامة بن زيد ، حلب ، ط١، ١٩٧٩ .

١٩-مقدمة ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي (ت٨٠٨هـ)، تحقيق : دار القلم، بيروت، ط٤، ١٩٨١م .

٢٠- المنجد في اللغة: لويس معلوف، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ط١٩، د. ت .

١٢- الوافي بالوفيات : صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت٧٦٤هـ), تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى, دار إحياء التراث, بيروت, ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م .

٢٢ـ الوساطة بين المتنبي وخصومه: أبو الحسن علي بن عبد العزيز القاضي الجرجاني (ت٣٩٢هـ)، تحقيق وشرح: محمد أبو الفضل إبراهيم، علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركائه، مصر، ط٣، ١٩٥١م .